سوزان لانكر
الرمز الشكل الفضاء

قبيلة فارس المالكي*

الملخص:

سوزان لانكر .."الرمز، الشكل، الفضاء"

تتناول الدراسية الفيلسوفة المعاصرة (سوزان لانكـــر) التـــي تركـــزت دراستها بوجه خاص حول فلسفة الفن... في فلسفة لانكر نلمح تـــأثراً واضحـــاً بفلسفة الاشكال الرمزية، في عصرها.. فهي تعرف الفن بأنه "إبداع اشكال قابلـــة للادراك الحسي بحيث تكون معبرة عن صورة الوجدان البشري" وبذلـــك هـــي تظهرنا على العلاقة بين "الشكل والوجدان" ولم تجعل من الفن مجرد اداة للمتعـــة الحسية بل جعلت منه وسيلة رمزية للمعرفة... فالفن رمز والعمل الفني صـــورة رمزية، ولقد طبقت لانكر هذا المفهوم على فن الموسيقى في البداية ومـــن بعـــد على كل الفنون الاخرى حتى الفنون البدائية.

ولا نكر تبدأ بافتراض ان الرمز هو الذي يمـــيز الانســـان عـــن بـــاقي الكائنات... وهي ترى ان العملية الرمزية تشتمل شتى مظاهر النشـــاط البشـــري بما فيها من فن، وحلم، واسطورة، وخرافة، وطقوس دينية، وميتافيزيقيا وغـــير ذلك...

أما عمل الفن لدى لانكر فهو ليس الشكل في الفضاء، كل الفضاء الـــذي ينتجه ويكونه ويعطيه، والفضاء لدى لانكر ليس له شكل وهو تجريـــدي تمامـــاً، هو اساس كل تعبيراتنا يكتشف تجريدياً بالتعاون مع احساسنا....

* جامعة بغداد – كلية الهندسة/قسم الهندسة المعمارية/استاذ مساعد

يتضح مما تقدم اننا في هذه الدراسة سنقف عند مفاهيم ثلاثة في فكر الفيلسوفة لانكر وهذه المفاهيم هي الرمز "Symbol" والشكل "Form" والفضاء "Space" .. في محاولة للتعرف على هذه الجوانب في فلسفتها.

المقدمة:

ولدت الفيلسوفة الامريكية المعاصرة سوزان لانكر بمدينة نيويورك من ابوين المانيي الاصل عام "١٨٩٥" تلقت تعليمها في راد كليف حيث حصلت على الماجستير ثم الدكتوراه في الفلسفة، تنوع انتاجها الفلسفي بين المنطق والفلسفة العامة، وعلم الجمال وعلم اللغة، وفلسفة الفن، تركزت دراستها بوجه خاص حول فلسفة الفن (م:١) ولانكر اخلص تلميذة من تلاميذ ارنست كاسيرر ونلمح في فلسفتها تأثراً واضحاً بفاسفة الاشكال الرمزية التي قدم لنا اصولها الفيلسوف الالماني الكبير كاسيرر، فضلاً على انها قامت بترجمة واحد من كتب كاسيرر الى اللغة الانكليزية سنة "١٩٤٦" الا وهو كتاب "اللغة والاسطورة".

ألفت لانكر عدد غير قليل من المؤلفات الفلسفية، واشهر كتبها:

- تطبيق الفلسفة/١٩٣٠ "Practic of Philosophy".
- الفلسفة بمفتاح جديد أو أفق جديد في الفلسفة / ١٩٤٢ "Philosophy in a new Key".
- والوجدان والصورة / ١٩٥٣ "Feeling and Form".
- مخططات فلسفية / ١٩٦٢ "Philosophical Sketches".
- العقل مقالة في الوجدان البشري / جزءان / ١٩٦٧.
- مسائل في فلسفة الفن / ١٩٥٧.

كما أصدرت عام ١٩٥٩ كتاب ضخم بعنوان "تأملات في الفن" تضمن مجموعة هائلة من الدراسات في علم الجمال وفلسفة الفن بقلم نخبة ممتازة من المفكرين وعلماء الجمال (م:١ و م:٢)، ويضع الاستاذ "Peter A. Bertocci"

لانكر وهو بصدد الحديث عن نظريتها في الوجدان "Feeling" يضعها جنباً الى جنب مع مفكرين كبار من امثال جيمس سانتيانا، برغسون، كروتشه، وايتهد، ويشيد بكتاباتها ودورها الريادي كل من تعرض بالحديث عن مؤلفاتها، أو نظريتها في الفن من قريب أو بعيد (م:١).. وتعرف لانكر الفن بانه ابداع اشكال قابلة للادراك الحسي بحيث تكون معبرة عن صورة الوجدان البشري". فالفن رمز والعمل الفني صورة رمزية (م:٣) ولقد طبقت هذا المفهوم على فن الموسيقة في البداية ومن بعد كل الفنون الاخرى حتى الفنون البدائية، أما الفن كما حدده كاسيرر فهو ابداع اشكال رمزية للوجدان البشري (م:١) وعند لانكر يمثل العمل الفني رمز مجازي "Metaphorical Symbol" وكل اسقاط رمزي هو تحول "Transformation" وأن ما يدرك في الفن كصورة معبرة يدرك كشكل وقد يستخدم الرمز فيه دون ان يكون هنالك فن رمزي (م:٤) .. فالفن كما تقول لانكر هو ابداع اشكال قابلة للادراك الحسي "Perceptible" ولم تقل لانكر اشكال محسوسة "Sensuous" معبرة عن صورة الوجدان البشري أو الشعور البشري، والمقصود بكلمة "شعور" في هذا التعريف هو الاشارة الى الاحساس "Sensation" والحساسية "Sensibility" والانفعال "Emotion" وشتى المواقف الوجدانية التي يمكن ان يعبر عنها الفنان وتلاحظ سوزان لانكر ان هنالك ميلاً قوياً نحو الفن بالرجوع الى ما في النشاط الجمالي من "معان" أو "دلالات" بدلاً من الاقتصار على القول بانه تجربة تبعث اللذة "Pleasurable Experience" أو مجرد خبرة تقوم على اشباع الحواس (م:٢) وهنا تمثل لانكر احدى الاتجاهات الجديدة المتعلقة بعلم الاشارة "Semiotics" وعلم الاشارات: هو علم دراسة الظواهر الحضارية "Cultural Phenomena" كأنها أنظمة اشارات تقوم بالاتصال (نقل المعاني) والعمارة

هي احدى حقول الاتصال (م:٥ص١٤) ولانكر تبدأ بافتراض ان الرمز هو الذي يميز الانسان عن باقي الكائنات.

"لانكر والرمز"

في كتاب "Philosophy in a new Key" ناقشت لانكر الاساس الفلسفي الذي قامت عليه "الوضعية المنطقية" الا وهو القول بأنه " حدود اللغة هي حدود التجربة البشرية نفسها" وان كل ما لاسبيل الى التحقق منه تجريبياً هو لغو فارغ لا معنى له على الاطلاق (م: ٦، م:٢) وهنا تتساءل لانكر ما هي القوة او ما هو سر القوة في الرياضيات لتفوز بالتجربتين، فالصفر والمالانهاية والجذر التربيعي للارقام السالبة كلها اسئلة لا يمكن الاجابة عنها في المختبر... وتقول لانكر ربما كان السر يتواجد في كون الرياضي لا يقول أي شيئ عن الوجود، الحقيقة، جدوى الاشياء على الاطلاق، اهتمامه في امكانية ترميز العلاقات التي يمكن ان تتداخل فيما بينها ..(م:٦) ومن ثم تؤكد على اننا لو عرفنا ان الانسان موجود يحيا اولاً وبالذات في عالم من الرموز واذا فهمنا ان الرمز ليس وقفاً على التفكير اللغوي بل هو يمتد ايضاً الى مجالات اوسع من المجال اللفظي الصرف، امكننا ان ندرك كيف ان العملية الرمزية التي يقوم بها الانسان تشمل شتى مظاهر النشاط البشري بما فيها من فن ، وحلم، واسكرة، وخرافة، وطقوس دينية، وميتافيزيقيا وغير ذلك والواقع ان الكلام ليس إلا مظهراً واحداً من مظاهر تلك العملية الرمزية التي يضطلع بها الموجود البشوي فلابد لنا من التسليم بان عالم المعاني اوسع بكثير من عالم اللغة.. (م:٢) وتقرر لانكر اننا نجد في الميتافيزيقا والفن " رموزاً " تعبر عن معاني عقلية الى ابعد حد، واننا لونظرنا الى أي لوحة من اللوحات، لما وجدنا انفسنا بازاء مجموعة من الخطوط والالوان والاشكال فحسب، بل لوجدنا انفسنا ايضاً ازاء لغة رمزية تنقل الينا بعض الدلالات من خلال ذلك المظهر المادي. ولو امعنا النظر في أي

عمل فني لوجدناه اشبه ما يكون بنسق رمزي ابتدعه كائن ناطق للتعبير عن شعوره (م:٢ ، ص٣١١) وفيما ترى لانكر، ان الفن "رمز" والعمل الفني "صورة رمزية" معبرة عن صورة الوجدان البشري، يرى "كانت" الرمز تمثيل من الخيال يستدعي الكثير من الفكر، والفكرة الجمالية تختلف عن الفكرة العقلية في كونها تختلف عن المفهوم شكلاً ولو بغير المفهوم أو المعنى الكيفي أو التقليدي للاشارة، حيث ان ليس من مفهوم قادر على تفسير المحتوى الكامل للرمز (م:٤) فيما يستطرد "ريد" باعتباره الرمز فكرة مجردة، والرمزية، فن انتخاب نماذج تتطابق مع افكار مجردة، وقد يكون قالباً ذاتي تماماً ومجرد ..(م:٧).

تقول لانكر.. خلال العشرينات والثلاثينات حولت الفلسفة تركيزها من الاجزاء الاساسية الى الرمز واعتمد "Morris" على اعمال لانكر وانتج خطة عمل حول دراسة الرموز والكل بوصفها اجزاء من اللغات .. وهكذا بدأ الاهتمام المتزايد بالبنيوية "Structuralism" وعلم الاشارات "Semiotics" وتطبيقاتهما في اللسانيات وعلم الاجناس ومن ثم علم الاتصالات والتي تعد العمارة جزاءاً منها (م:٨، ص١٢).

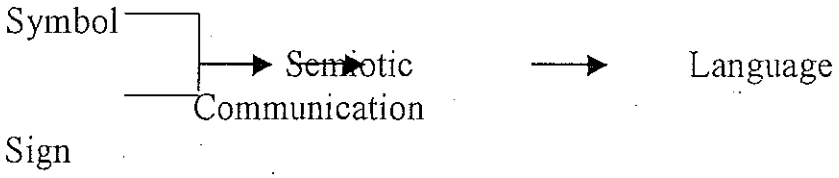

وسوزان لانكر تقيم تفرقة واضحة بين العلاقات أو الاشارة "Sign" والرمز "Symbol" فتقول: أن "sign" شيئ نعمل بمقتضاه أو وسيلة لخدمة فعل في حين أن الرمز "Symbol" أداة ذهنية أو مظهر من مظاهر فاعلية العقل البشري وحينما ينجح المرء في توصيل فكرته الى الآخرين عن طريق بعض

الرموز فاننا نقول عنه انه أحسن التعبير عن تلك الفكـرة (ص٣١٥-٣١٤، م:٢) والرموز المستخدمة في التعبير الفني ليست مجرد"علامات خارجية" أو "مظـاهر أنفعالية" بل هي رموز حقيقية تنطوي على معان أو دلالات... ونحن حين نقـول عن أي عمل فني أنه عمل معبر فانما نعني بذلك أن هذا العمل ينطـوي علـى صياغة الوجدان أو تشكيل الانفعال في صـورة يدركـها التصـور (م:٢، ص ٣١٧)، ان هذا التمييز بين الاشارة والرمز "هو الاساس الذي تبنى عليه لانكـر نظريتها في الفن، بل انها تميز بين "الرموز الاستدلالية" و "الرموز التمثيلية" بـل تذهب في التميز الى ابعد من ذلك حين تميز الانسان والحيوان على اسـاس ان الانسان حيوان يبتكر الرموز ويستخدمها، وهي عاملت الفنون بوصفها رمـوزاً تمثيلية لا استدلالية، ويمكن القول ان كل نظريتها في علم الجمال ترتكـز فـي النهاية على هذا (الرمز) الذي يمكن ان يطبق على الفن.. فالفن كرمز انما هـو كل مدرك او متخيل يعرض العلاقات بين الاجزاء او النوعيات الخاصـة بـهذا الكل (م:١، ص١٠).

لقد حاولت لانكر ان تجيب على هذا التساؤل: ما هو الفن؟ وذلك كبدايـة لتحليل نظريتها في تفسير الفن، واقامة علم جمال خاص بها يميزها عن غيرهـا من الفلاسفة، واستطاعت بحق ان تقدم نظرية جديدة في تفسـير الفـن بوصفـه رمزاً، والعمل الفني بوصفه صورة رمزية للوجدان البشري، لم تقـدم نظريتـها كفكر عقلاني مجرد بل كان اساس تقديمها مبنياً على احتكاك بالفنون وتلامـس بالاعمال الفنية، لهذا نجد في فلسفتها جانبين نظري وتطبيقي ايضاً.. (م:١) وهي ترى ان الرمز الفني يقوم على ما يسمى بالايهام أو الايحاء (خلق شـبه وهمـي Semblence) بمعنى انه يخلق جواً معيناً أو يوحي بمظهر يشبه الحقيقة لكـل هذه الحقيقة غير موجودة اصلاً في الواقع لكن هذا الايهام تام بمعنى ان المتـذوق يستجيب له ويحاول التعامل معه ويحاول ان يديمه..

واخيراً نجد لانكر تعتبر الفن عالم قائم بذاته وانه "مكتف بذاتـــه" لانـــه رمز مبدع، أو شكل مبدع لم يكن له وجود من قبل...(م:١، ص١٣).

"لانكر والشكل":

ترى لانكر غي كتابها "Feeling anf Form" ان الاشكال الاساســـية مثلاً، الدائرة، المثلث والحلزون "Spiral" والمتوازي "Parallel" هـــي الفكـــرة الرئيسية أو موضوع التصميم.. فتقول هذه الاشكال فن ولا زخرفة ولكنها تقـــود نفسها الى التكوين وهو لذلك باعث للابداع الفني..

وتقول لانكر ان الفكرة الرئيسية او الموضـــوع "Motifs" تـــدل علـــى الوظيفة (م:١٠) وتعطي الفنان الانطلاق للابداع.

Motifs are organizing devices that give the artists imagination a start.

وترى لانكر ان الشكل هو الاول.. وهذه الاشكال الاساسية هي الاســـاس في تشبيهاتنا وتصويراتنا.. وترتبط لانكر ذلك باللون حيث تقـــول ان اســـتعمال اللون كما في الشكل اولاً زخرفي واخيراً ممثلاً عن الطبيعة "فيكون اولاً قـــابلاً للادراك الحسي ومن ثم معبراً عن الشـــعور أو الوجـــدان البشـــري".. (م:١٠، ص٧٠)..

ومن ثم تصل الى فكرة ان الغرض من كـــل هـــذه الفنـــون التشـــكيلية "Plastic Arts" هو توضيح الشكل المرئي "Visual Form" وتمثيل هذا الشكل مباشرة لعكس الوجدان البشري..(م:١٠، ص ٧١).

وتعلق لانكر (وكما يؤكد ذلك زكريا ابراهيم في كتابه فلسفة الفـــن فـــي الفكر المعاصر) تعلق اهمية كبرى على دراسة "المظهر الشكلي" للفنون بصـــورة عامة، ولفن "الموسيقى" بصفة خاصة. والحق انه لما كـــانت الموســـيقى فنـــاً لا تمثيلياً " Non-Representative" حتى في صورتها الكلاسيكية، فليس بدعـــاً ان نجد في هذا الفن خير نموذج للشكل الخالص الخالي تمامـــاً مـــن كـــل مـــادة،

خصوصاً وان التركيبات النغمية لا تنطوي مطلقاً على أي مشهد، أو اية واقعة، او أي موضوع. واذا صح ان معنى الفن كامن في المدرك الحسي نفسه بغض النظر عما يمثله في الظاهر، فليس من الغرابة في شئ ان تكون الاعمال الموسيقية اقرب الاعمال الفنية جميعاً الى "جوهر المعنى الفني" الخالص، واقدرها على التعبير عن فن الصورة الخالصة الخالية من كل مادة (م:٢، ص٣٢٠).

لا ترى لانكر في الموسيقى مجرد منبه يولد بعض الاستجابات الوجدانية، بل هي ترى فيها لغة رمزية لا تخلو من معان ودلالات "Semantic" وليس معنى هذا ان لا صلة على الاطلاق بين فن الموسيقى من جهة، وبين حياتنا الوجدانية من جهة اخرى، وانما كل ما هنالك ان الموسيقى هي بمثابة "التعبير المنطقي" عن تلك الاستجابات الوجدانية أو عن هذه الحياة العاطفية، ان الموسيقى عالماً رمزياً خاصاً له استقلاله التام عن عالم المعاني اللغوية العادية، (م:٢، ص٣٢١) واذا كان للموسيقى طابعها الرمزي الخاص، فذلك لان رموزها- لاتحمل دلالات ثابتة- بل هي اشكال حرة يستطيع الموسيقار ان يؤلف بينها على النحو الذي يروقه، دون ان يكون من الضروري له ان يتقيد سلفاً بموضوع خاص يريد التعبير عنه... وربما كانت القيمة الكبرى للموسيقى -بين غيرها من الفنون- انها لغة رمزية تحمل من المرونة والطلاقة والقابلية للتشكيل، ما يجعل منها أقدر اللغات على التعبير لا التقدير ، والايحاء لا الادلاء ..(م:٢، ص ٣٢٥)... وقد اثبتت الفنون المعاصرة على ان هنالك علاقة لم تعد تقبل الجدل بين التصوير من جهة والموسقى من جهة اخرى (م:١١، ص ٩٦) وهذا يتضح في هذه الفقرات المستلة من المقال المنشور في (آفاق عربية) للكاتب (أسعد عرابي) حيث يقول:

"لعل الموسيقى تقدم لنا نوعاً من الضمان التجريدي مما دفع "شوبنهاور" لاعتبارها في رأس الفنون فهي ابعد من أي فن عن التلوث بالوصف والمشابهة والتقليد، ومعها سقطت الموسيقى في الاسفاف فلا احد يطالبها باعادة اصوات الطبيعة، بعكس الفنون الاخرى".

"أن الموسيقيون يترجمون الاشكال التي يرسمها قائد الفرقة في الفراغ بعصاه، ولعله هو نفسه يترجم برسومات حركية تلك الانظمة الصوتية المنوته أمامه على الورق" . (م:١١، ص٩٧).

" ان صلة الرحم بين التعبير البصري والسمعي نابعة من وحدة مفهوم "الزمان" فالبيروني مثلا يربط بين سرعة السماع والمشاهدة في الصوت والضوء المومض" (م:١١، ص ١٠١).

نعود الى لانكر والشكل في فلسفتها فنجد ان لانكر، أدركت ان القول بان الفن "شكل" يمكن ان يواجه نقداً لان ليس كل شكل فناً لذلك فهي تقول:" ان الاشكال اما ان تكون تجريدات فارغة او انها تحوي مضموناً، ولهذا فان الاشكال الفنية تعد اشكالاً من نوع خاص، ولها معنى خاص، انها اشكال معبرة منطقياً أو ذات معنى، انها رمز لوضوح الوجدان.. الفن رمز هو ايضاً وهم، فالفنان يستخدم الخطوط والالوان والاصوات والكلمات لكي يبدع صورة "Image" أو وهماً "Illusion" (م:١، ص ١٧).

ان هذه المكفرة الممتازة التي كونت فلسفتها الجمالية تحت تأثير فاسفة "كاسيرر" في "الاشكال الرمزية" قد استطاعت ان تظهرنا على العلاقة الوثيقة التي تجمع بين "الشكل والوجدان" فلم تجعل من الفن مجرد اداة للمتعة الحسية، بل جعلت منه وسيلة رمزية للمعرفة.(م:٢، ص ٣٢٧).

والسؤال الان، لماذا تصر لانكر على القول بان الرمز شكل؟ ذلك لان ما يدرك في الفن انما هو الشكل، وليس هذا فحسب، بل لان ما يبدع في الفن ايضاً هو الشكل.

فالفنان يبدع شكلاً، وهذا الشكل المبدع هو ما يدركه المتذوق وعلى هذا يكون الشكل مبدعاً ومدركاً في ذات القوت، ولكي يكون الشكل معبراً، لابد وان يكون "عضوياً" ولهذا فهو حي، يعبر عن العواطف او الوجدانيات.

فالفن كشكل يتكون من مجموعة من العناصر المتنوعة التي ترتبط وتتفاعل معاً في ابراز هذا الشكل بحيث يعطي بوضوح وبموضوعية وبحيث يمكن ادراكه (م:١، ص١٤).

الفن اذا، شكل، والشكل بناء من العلاقات، هذا البناء يجيء مماثلاً للبناء الدينامي الخاص بالخبرة البشرية لهذا يستطيع ان يعبر عنها، ولعل تركيز لانكر على الشكل واهميته، يرجع الى ادراكها العميق للوظائف التي يقوم بها الشكل:

١-يضبط ادراك المشاهد ويرشده ويوجه اهتمامه وانتباهه في اتجاه معين بحيث يكون العمل واضحاً أو مفهوماً وموحداً في نظره.

٢-يرتب عناصر العمل على نحو من شأنه ابراز قيمتها الحسية وقدرتها التعبيرية، فضلاً عن ذلك فان التنظيم الشكلي له في ذاته قيمة جمالية كاملة" .. (م:١، ص ١٥).

"لانكر ... الفضاء"

"الفضاء الايهامي" Virtual Space

تؤكد لانكر في كتابها "Feeling And Form" على حقيقة مفادها ان عمل الفن هو ليس الشكل في الفضاء بل تشكيل الفضاء؛ كل الفضاء الذي ينتجه ويكونه ويعطيه:

"The work of art must be only a space, but a shaping of space of all the space that he is given"

تقول لانكر ان الفضاء كما نعرفه في العالم الواقعي ليس له شكل وحتى في العلم وعليه فهو له شكل منطقي "Logical Form"، وهناك علاقات حيزية فضائية ولكن لا يوجد كل مادي متماسك "Concret Totality" للفضاء.

الفضاء لا شكل له "Amorphous" وهو تجريدي تماماً هو اساس لكل تعبيراتنا، يكتشف تدريجياً بالتعاون مع احساسنا، الان ننظر، الان نشعر، ونعقل الفضاء كثابت وحقيقة في حركتنا وعملنا، محدود لسمعنا ومحدود لحركتنا ووصولنا ونحن نتعامل معه على انه ليس وجود وكينونة.(م:١٠، ص٧١-٧٢) وهنا تتسائل لانكر كيف نستطيع تنظيم او تشكيل الفضاء؟ وتجيب لانكر، باعتقادي الفضاء الذي نعيش فيه هو ليس الفضاء الذي نتعامل معه في الفن عموماً، الفضاء المنتظم بانسجام في لوحة هو ليس فضاء تجريبي أو اختباري "Experiential" بل نعرفه بالنظر واللمس، من خلال قرب او بعد الاصوات.. هو علاقة مرئية، للمس والسمع، للفعل الموسيقي غير الموجود..(م:١٠،ص٧٢)، وهنا نجد انفسنا امام ضرورة التحدث عن الـ Space والـ Anti-Space*: كما تحدث عنهما "Steven Kent Peterson" في مقالته: "Space and Anti-Space" وهو يتحدث عن الفضاء في العمارة الحديثة "Modern Architecture" ويجيب "petrson" على هذا التساؤل مستنداً وصف " جارلس مور- جيرالد آلن" للفضاء الحديث:

"الفضاء الحديث جزء من الفضاء الحر حيث يعطيه المعماري شكل وقياس وهو جزء من الفضاء الكلي" وعليه فهو فضاء حر مستمر، بدون شكل (كما وصفته لانكر) شامل، ويعرف بوجود اشياء "Object" (نعقل الفضاء كثابت في حركتنا وعملنا كما تقول لانكر) داخله تعرفه (رودولف ارناهيم)

وحتى ضياع الاشياء يبقى الفضاء وعاء فارغ بلا حدود فيكون خلفية للهيئـــة... (مفهوم الـ Anti-Space).

الفضاء الحديث ظاهرة طبيعية وهو اللافضاء "Anti-Space".

وعليه فان فكرة لانكر عن الفضاء اقرب الى الفضاء الحديث منها الـــى ما قبله.. ونعود الى لانكر والفضاء الايهامي والى ما تسميه الفضاء التصويـــري "Pictorial Space" وهو ليس الفضاء المنظم من خلال اللون، بل هـــو فضـــاء مبدع دون تنظيم الاشكال، وهو غير موجود، وكما هو الحال مع الفضاء خلـــف سطح المرآة، وهو كما يسميه الفيزيائيون الفضاء الايهامي، "Virtual Space" والفضاء الايهامي هـــو الوهـــم الاولـــي "Primary Illusion" فـــي الفنـــون التشكيلية..(م:١٠،ص٧٢).

لكل فن وهم اولي، والاختلاف بين الفنون يمكن ان يفسر عـــن طريـــق الوهم الاولي وجميع الفنون التشكيلية تبدع فراغاً بصرياً (كما يســـميه راضـــي حكيم ونحن اسميناه في البحث الايهامي" Virtual Space فالموســـيقى تجعـــل الزمان مسموعاً وشكله واستمراره محسوساً. وينسحب هذا الكلام على كل انواع الفنون الاخرى التي هي اوهام أو ابـــداع لـــهذه الاوهـــام، (م:١، ص٢٠) كمـــا سنوضح ذلك لاحقاً... تقول لانكر فـــي كتابـــها "Feeling and Form" فـــي صفحة(٧٢).

"The created virtual space in entirely self-contained and independent"

كما انها تتحدث عن "Adolf-Hildebrant" أول المنظرين فـــي هـــذا الموضوع والذي تحدث في كتابه:

"The Problem of form in Painting and Sculpture"

تحدث عن عملية التمثيل التصويري، انطلاقاً من فكرة ابـــداع الفضـــاء والتي اسماها عملية الـــ (Architectonic)** وهو يعتبر عمل الفنان هو بنـــاء

فضاء ندركه مرئياً... وهو يعتبر كل ما في الصورة مرئـي يخـدم الاغـراض الـ(Architectonic).. وهو يصفها بان عملية انشاء وتنظيـم الاشـكال فـي الفضاء بطريقة ما تحدد وتنظم الفضاء..(م:١٠، ص ٧٤).

وعليه فالجانب المرئي هو اساس فكرة "Hildebrand" في الجمـال... وتواصل لانكر وتعرف الفضاء الايهامي "Virtual Space" هو كـل متكـامل وليس جزء من نظام كلي، سواء أكان ببعدين أو بثلاثة ابعاد، وهو مستمر بكـل الاتجاهات وغير محدد... والاشكال المدركة بالحواس "Pereceptual Forms" خارجة عنه ولكنها لابد ان يكون لها في نفس الوقت علاقة به بغض النظر عـن الحدود...

ابداع الفضاء الايهامي موجود في كل الفنون التشكيلية وهو يشـمل مـا يكون فيه الشكل الرمزي موجود. الحياة في الفن هي حياة الاشكال أو الفضـاء نفسه، عندما يكون لدينا ورقة بيضاء تكون مجرد ورقة وعندما نرسـم عليـها نعطيها الحياة فهي ليست مجرد ورقة الان، إنها فضاء "Space" ولو أعدنا نفس الرسم على لوحة اكبر من الاولى عندئذ نضيف الى الرسـم توسـعات تضفـي الحياة على الفضاء المحيط...

تنتقل لانكر الى شرح صيغ وانماط الفضاء الايهامي "Virtual Space" وتقول ان فكرة الفضاء المدرك بالحواس عموماً اعتبرت كل الفنـون التشـكيلية اسرة واحدة.. وان الوهم الاولي هو ليس المنظر أو المشهد " scene" ولكن هو فضاء ايهامي باي صيغة ينشأ، رسم –نحت– عمارة، ثلاث مجـالات للمفـهوم الفضائي... وفي كل منها المفهوم يكون خاص...

في النحت قواعد الوهم تبدو أقل اهمية عما في الرسم، حيث ان سـطح مستوى يولد لنا فضاء بثلاثة ابعاد هو بالتأكيد "Virtual" أمّا النحت فهو حجـم "Volume" وليس مشهد "Scene" فالمنحوتة لها نوع من الفضـاء او الفـراغ

حولها فتعطي فضاء مرئي "Visible" والفراغ حولها له شكل فعال كاستمرارية للمنحوتة... وعليه فالفضاء الايهامي في الرسم يتأتى من خلال المشهد "Scene" وهو رؤيا مباشرة وفي النحت يكون الحجم هو الذي ينقل المعلومات بمفردات مرئية...

ولعل ما كتبه-"Broun Adriani" في كتابه "Problems of the Sculpture" يؤكد هذا القول حيث كتب يقول:

- "الفضاء في الفن... ندركه من خلال حواسنا واحساسنا".
- "الفضاء هو مشهد حسي "Sensory Scene" لتحارب الانسان، هو مجال نشاطنا وعلاقتنا مع بيئتنا".
- "النحت والمنحوتة يقوي ويضفي الحياة للفضاء الحسي متضمناً وجوده في احساسنا وكذلك وعينا"...

وبذلك نكون قد تحدثنا عن الفضاء الايهامي في الرسم والنحت والان ننتقل الى العمارة ونقول عنها لانكر، " العمارة فن تشكيلي وانتاج في اوله هو غير واعي أو غير قصدي هو وهم "Illusion" وهو خيال او مفهوم أو فكرة تنتقل الى انطباع مرئي (م:١٠، ص٩٢) ورأيها هذا طرحته بعد ان ناقشت لانكر مجموعة من الافكار في عصرها حيث تقول، ان هنالك من يقول ان الوهم في العمارة مفقود لوجود القيم الحقيقية للعمل، المأوى، الراحة، الامان... وظائفها الحقيقية ضرورية بحيث ان المعماريين لا زالوا يتجادلون فيما بينهم فمنهم من يعتبرها نفعية "utilliarian" أو جمالية خاصة في "النصب"... وبعضهم يعتبرها فن تطبيقي "Applied Art" ... وتضيف لانكر ان العمارة لا يمكن ان تكون نفعية فقط او جمالية فقط فلو كانت الوظيفة هي المهمة دون ان تخدم الجمال فعليه فان الشكل يتبع الوظيفة "Form follow Function" – لويس سوليفان- ولايمكن ان تكون الوظيفة مقياس للجمال ... (م:١٠).

فن العمارة نوع من الايهام يعبر عن المجال القبلـــي الاثنـــي "Ethnic Domain"والعمارة تقوم بتنظيم وتحديد الفضاء وتعطيه كياناً مستقلاً قائماً بذاتـــه والمعماري ايضاً يخلق مجالاً حضارياً يعبر عـــن الوظـــائف الممـــيزة للحيـــاة الانسانية (النوم، الصحو، الطفولة، النضوج...) العمارة تجعل البيئـــة بمجملـــها موضوعاً للرؤيا.

أوضح مثال للعمارة هو المسكن "House" والذي بدأ مـــن الكـــهوف أو جلود الحيوانات واستعمال الاشجار للسقوف ومع هذا فان الافكار المعمارية قلمـــا نتجت من خلال الحاجة الى السكن... وانما نمت في المعابد، القبور، المســـارح، القاعات... الخ) (م:١٠، ص٩٥).

العمارة رمز للعالم امام الرموز الاخرى، العالم الذي نخلقه لانـــه أكـــثر انسجاماً واكثر ملائمة...(القبور في العمارة الفرعونية تعبر عن العالم الســـفلي... جدران بدون شبابيك، الصمت، الموت، ... "Egyption Tomb" والكاتدرائيـــلت اماكن وجدت رموزاً للحياة اكثر منها للحياة الفعلية)...(م: ١٠، ص ١٠٢).

وتستطرد لانكر في حديثها عن الفنون التشكيلية الثلاث "الرسم، النحـــت، العمارة ..."

- الرسم يبدع سطوح للرؤيـــا أو مشـــهد لاراحـــة عيوننـــا (ســـطوح ببعدين)..
- الرسم ←—————— Scene
- النحت يبدع حجوم دينامية وفضاء بثلاث ابعاد.
- النحت ←—————— Kinetic Volume
- العمارة تبدع المجال الاثني أو المكان الايهامي
- العمـــارة ←—————— Virtual Place Esthinc أو Domain(م: ١٠، ص٩٥)

الفنون التشكيلية تعبر عن الايحاء بالمكان بمعنى انها توحي لنا بحقيقة مكانية أو كيان مكان يحقق شئ بالنسبة للمشاهد. والمكان عند ادراكنا ايضاً مجرد، والعمل التشكيلي يحدد الفضاء ايحائياً أي لا وجود حقيق للمكان.

الفنون التشكيلية كلها تؤدي الى الفضاء الايهامي، وهنا نود ان نستعرض رأي هيغل بالفنون التشكيلية الثلاث سابقة الذكر:

الرسم ← النحت ← العمارة ←

يقول هيغل:

المكان الاول يعود بحكم طبيعة الاشياء بالذات الى فن العمارة، فالعمارة تمثل بدايات الفن لان الفن في بداياته لا يكون قد وجد بعد لتمثيل مضمونه الروحي، لا المواد المناسبة ولا الاشكال الموافقة مما يضطره الى الاكتفاء بمجرد البحث عن التطابق الحقيقي والى الارتضاء بمضمون ونمط تمثيل خارجين صرفين. والمواد التي يعمل فيها هذا الفن الاول خالية من كل روحية؛ فهي المادة الثقيلة؛ الخاضعة لقوانين الثقالة؛ اما الشكل فقوامه الجمع بصورة متناظمة ومتناظرة وبين تشكيلات الطبيعة الخارجية وتحقيق كلية العمل الفني بجعله محض انعكاس للروح.

بعد العمارة يأتي النحت ومبدؤه ومضمونه يتمثلان بالفردية الروحية، ويستخدم النحت هو ايضاً مواد ثقيلة في كليتها المكانية ولكن من دون ان يعطي هذه الكلية اشكالاً عضوية ولا عضوية، غير ان الشكل المتضمن هنا في المضمون بالذات والمتعين به هو الشكل الذي يعبر عن الحياة الواقعية أو الواقع الحي للروح، أنه الهيئة الانسانية وعضويتها الموضوعية المتشربة بالروح...

واخيراً الفنون التي مهمتها تظهير الداخلية الذاتية، والحد الاول في هذه الحالة يتمثل بالرسم، فالرسم يجعل من الهيئة الخارجية التعبير الكامل عن الداخلي الذي يمثل وسط العالم المحيط، المطلق لافي انطوائه على ذاته فحسب

بل كذلك في ذاتيته الروحية القادرة على ان تريد وتحس وتعمل وتقيم علاقـــات مع ما هو مغاير لها، والمعرضة بالتالي للالم والعذاب وللاهواء كافة والتلبيـــات جميعاً..(م:١٣، ص٢٠).

ويضيف هيغل، ان الضوء الخارجي هو الذي يجعل منتجـــات العمـــارة والنحت منظورة، اما في الرسم فان المادة تملك نورا فكرويا، ملازما لها، فـــهي تنير نفسها بنفسها وتحمل في ذاتها عتمتها الخاصة، وباللون وفي اللون تتحقـــق وحدة الضوء والعتمة وتنافذها (م:١٣، ص٢٢)... وهو بذلك يتحدث عن الفنـــون الثلاث من خلال مفاهيم (الهيكل، الذاتية الداخلية، النور) ولا يتطرق الى مفـــهوم الفضاء. وذكر النور والضوء نجد له صدى في فكر معمارنا الكبير كوربوزيـــة "Le Corbousier" والذي يعرف العمارة:

" ان العمارة لعب صحيح بالكتل تحت تأثير الضوء.."

Architecture is the masterly correct and magnificent of masses brought together in light"

وحيث ان الضوء متغير فانه يزيد العمارة الجيدة غنى وحيويـــة، وهـــو يولد اشكالا جديدة..(م:١٠). ويربط هنا بين الضوء والشكل. وهكذا نجد ان كـــل انسان –أي انسان– ان يتأثر بروح عصر فينصهر واياها في بودقة واحدة تظـــهر صورها متميزة بطابع تلك الحضارة كما يقول الاستاذ جعفر آل ياسين في كتابـــه "فلاسفة يونانيين" وسواء أكان المفكر فيلسوفاً أم سياسياً أم فناناً فهو نبع حضارته وبنت زمانها، ولا يصدق هذا الامر على حضارة دون اخرى بل هـــو مقيـــاس شامل للدراسات الانسانية في شتى ضروبها والوانها. ولانكر فيلسوفة معـــاصرة اثرت وتأثرت بمفكري عصرها كما اثرت في فلسفة عصرها ككل.

الخاتمة:

ليس من شأن الفن أن يخلع طابعاً موضوعياً علـــى حياتنـــا الوجدانيـــة وانفعالاتنا الذاتية فحسب بل من شأنه ايضاً ان يخلع طابعاً ذاتياً علـــى ادراكنـــا

للطبيعة، فيجعل من الحقيقة الخارجية نفسها رمزاً للحياة والوجدان.. وكل هذه الوظائف النفسية يقوم بها الفن في حياتنا البشرية انما هي التي تجعل للرمزية الفنية دوراً كبيراً في حضارة الانسان، أليس الانسان ذلك الحيوان الذي لا يكف عن صنع الرموز"؟ (م:٢، ص٣٢).

تعرف لانكر الفن بانه ابداع اشكال قابلة للادراك الحسي بحيث تكون معبرة عن صورة الوجدان البشري وعلى هذا فان الفن يبدع شكلاً، وهذا الشكل لابد ان يكون معبراً وما يعبر عنه هو صورة الوجدان البشري...(م:١، ص١٢).

الفن ليس اشارة بل رمز، فاذا نظرنا الى الفن على اعتبار انه اشارة "sign" فاننا سوف نستجيب له عاطفيا وهذا ما ترفضه لانكر ولكنها تنظر اليه من ناحية كونه رمزاً...(م:١، ص٢٠).

ويعبر عن شيء حقيقي أو خيالي... الفن هو ليس الشكل الماثل امامنا، وانما الاضافات الضمنية التي يوحي بها الشكل... وللموسيقى في فكر لانكر دورها فهي لا ترى في الموسيقى مجرد منبه بعض الاستجابات الوجدانية، بل هي ترى فيها لغة رمزية لا تخلو من معان ودلالات.. وترى انها اشكال حرة (م:٢).. وترى لانكر ان الاشكال الفنية اشكال معبرة منطقياً أو ذات معنى انها رمز لوضوح الوجدان..(م:١)... وتصر لانكر على القول بان الرمز شكل... وذلك لان ما يدرك في الفن هو ليس الشكل بل هو تشكيل الفضاء...

ولانكر في كتابها تؤكد على ان الفضاء الايهامي "Virtual Space" والذي يبدع من خلال وهم اولي في كل الفنون التشكيلية (رسم-نحت-عمارة).

وأخيراً إن هذه المفكرة الممتازة، استطاعت ان تظهرنا على العلاقة الوثيقة التي تجمع بين "الشكل والوجدان" حيث جعلت من الفن وسيلة رمزية

للمعرفة وليس مجرد اداة للمتعة الحسية... وربما تكون لنا وقفات اخرى في فكر هذه المفكرة المعاصرة....

المصادر حسب تسلسل الاستفادة منها....

١-فلسفة الفن عند سوزان لانكر، راضي حكيم، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦.

٢- فلسفة الفن في الفكر المعاصر، زكريا ابراهيم، دار مصر للطباعة، ١٩٦٦.

٣- Introduction Introductory reading in Aesthetics, Jhon Hospers, The free press

٤-الرموز والنصب المعمارية ومواقعها في المدينة العربية، أطروحة ماجستير، علي عمران، ١٩٩٠، كلية الهندسة، جامعة بغداد.

٥-الرمزية في العمارة الاسلامية، اطروحة ماجستير، محمود الصفدي، ١٩٨٨، كلية الهندسة، جامعة بغداد.

6-Philosophy in anew Key/ Susanne K. Langer/ Harverd University Press/ 1960/ Chapter one.

٧- معنى الفن، هربرت ريد، ترجمة سامي خشبة، مراجعة مصطفى حبيب، وزارة الثقافة والاعلام، دار الشؤون العامة، ١٩٨٦.

8- Redesigning the Future- A system approach to social problems/ Russel L. Ackoff/ Witey interscience/ 1974.

9- Signs, Symbols and architecture/ Broadbent-Bunt and Jencks John Willey and sons/ " The Architectural Sign" Jencks/ 1980.

10- Feeling and Form – A theory of art developed form philosophy in a new key / Susan K. Langer 1973/ Routledge and Kegan Paul limited.

١١- مجلة فنون عربية، هيغل، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، ١٩٧٩.

12- Failure of modern Architectural, Brolin, 1976.

13- Architecture: Form- Space & order, Francis D.K. Ching Van nosttrand reihold company, 1979.

14- Design, Sybil Emerson, Pennsylvania A state University , 1966, Intenational textbook Company, Scranton.

15- Gothic Architecture and Scholasticism, Panofsky, 1951, New American Library.

الهوامش:

* ظهور اللافضاء، ارتبط بـ"Copernicus" بعد نظرية نيوتن .. وهو ربط العام مع الخاص، بلا معنى، بلا رمز،... وفيه الشكل نسبي في اظهاره... من خلال الحركة والزمن... وهنا لابد من تعريف الفضاء:" الفضاء، حجم مميز، ومحدد بشكل(غير مستمر كمبدأ) ومغلق وساكن، وهو متسلسل في التكوين..(م:١٢).

** Architecture Process: is the construction and ordering of forms in space in such away that they define and organize the space...

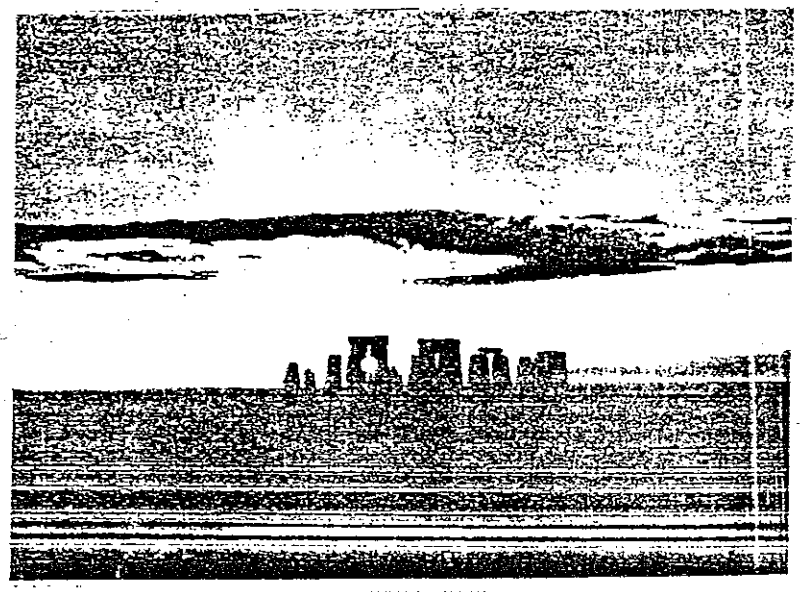

STONEHENGE

'The temple really made their greater world of space . . . The heavenly bodies could be seen to rise and set in the frame it defined.'

شكل "1" الفضاء الأيقوني لدى لانكر (م:10)

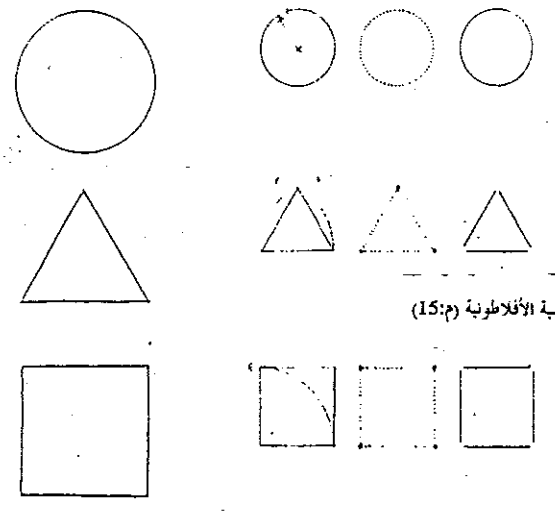

شكل"2" الأشكال الأساسية الأفلاطونية (م:15)

ترى لانكر في كتابها "Feeling and Form" أن الأشكال الأساسية هي الفكرة الرئيسية أو موضوع التصميم

شكل"7" العمارة رمز للعالم، القبور في العمارة الفرعونية تعبر وترمز الى العالم السفلي(م:15)

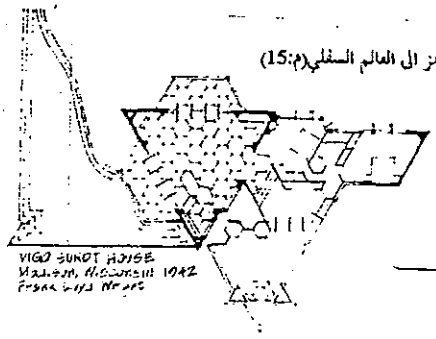

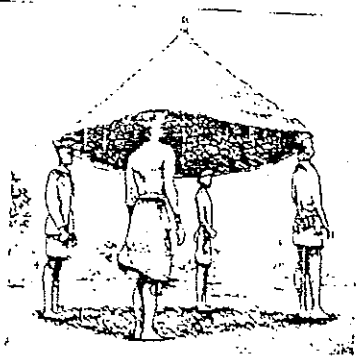

شكل"8" الفضاء من خلال سقيفة قش (م:15)

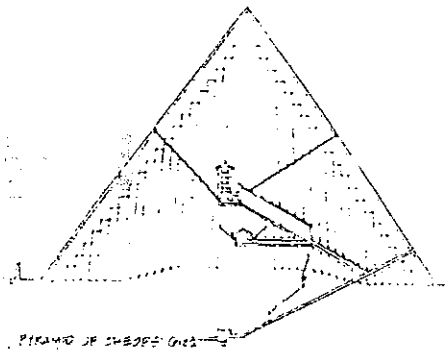

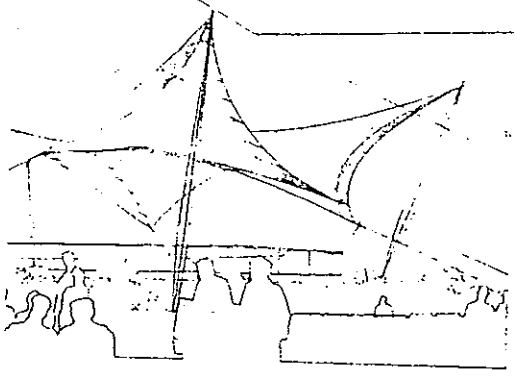

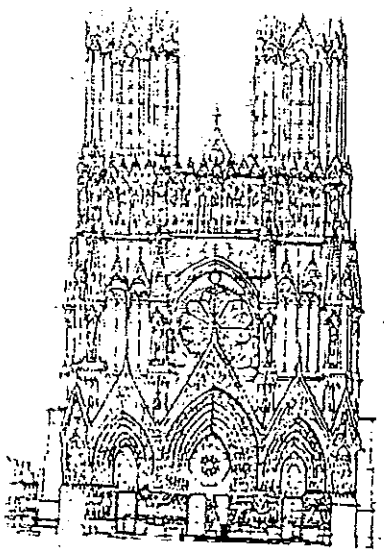

شكل"9" الرمز للحياة في العمارة القوطية (م:17)

شكل"10"كنيسة رونشان للمعماري لي كوربوزيه، حيث يقـول : "العمـارة تلعـب بالكتل تحت تأثير الضوء (م:15)

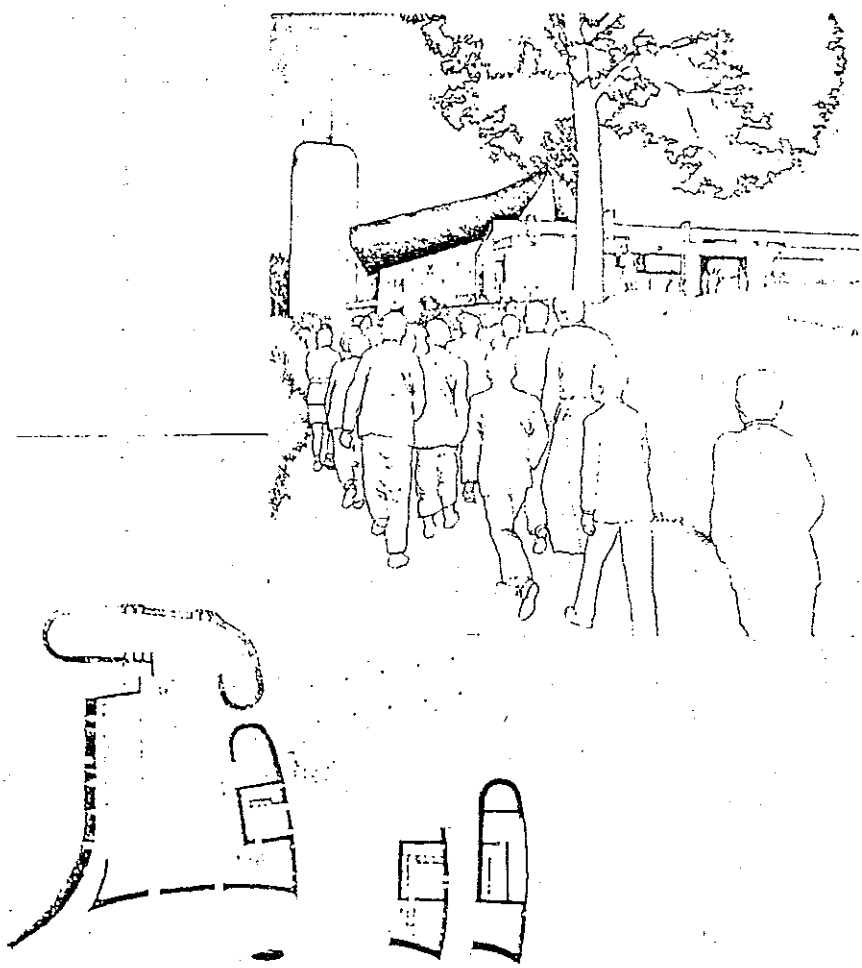

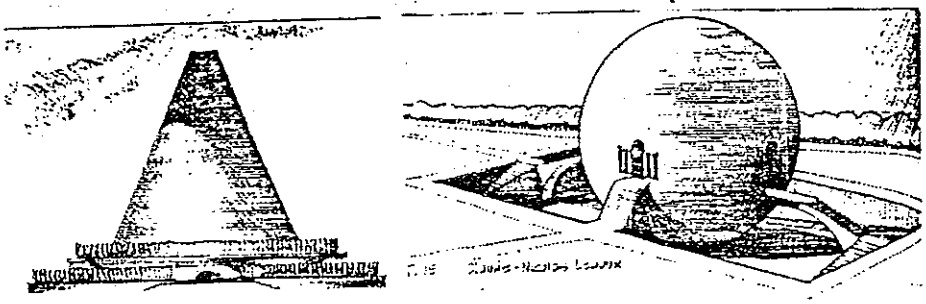

شكل"3" الحجوم المشتقة من الدائرة، كشكل أساسي بعدين (م:15)

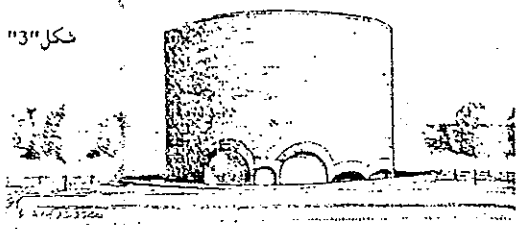

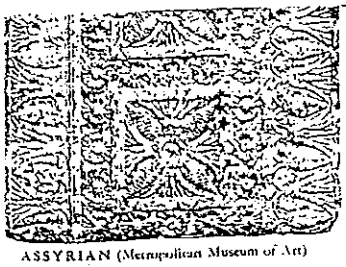

ASSYRIAN (Metropolitan Museum of Art)

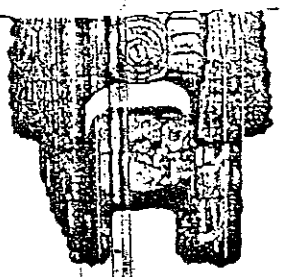

MEXICAN
American Museum of Nat. History

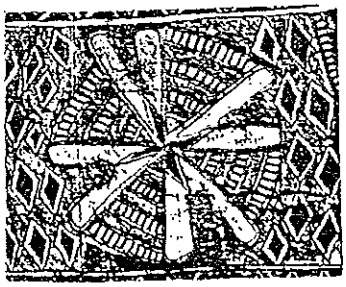

INDONESIAN (Smithsonian Institution)

PENNSYLVANIA GERMAN
(John [illegible]h Straub)

شكل"4" الشكل الأساسي لكل هذه التشكيلات هو إلـ "Flower" (م:10)

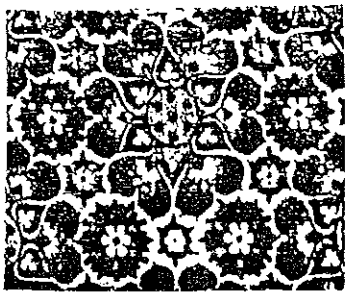

VENETIAN (Metropolitan Museum of Art)

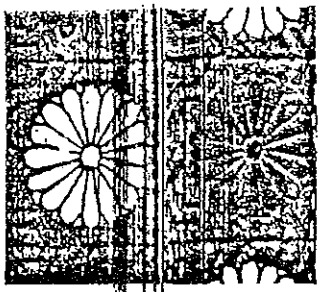

CHINESE (E. Weyhe)

KOSHTTSAL: 'The interesting point is that in each of these inventions the form is so unmistakably a flower.'

شكل"5" المنحوتة لها نوع من الأستمرارية مع الفضاء أو الفراغ حولها فتعطي فضاءا (م:16)

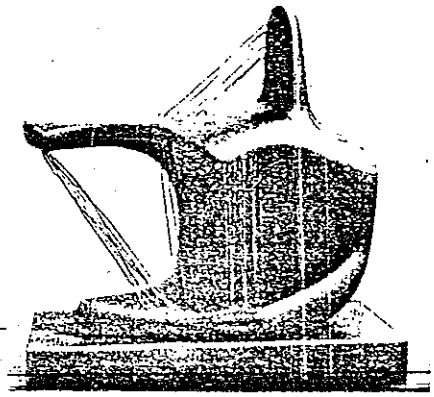

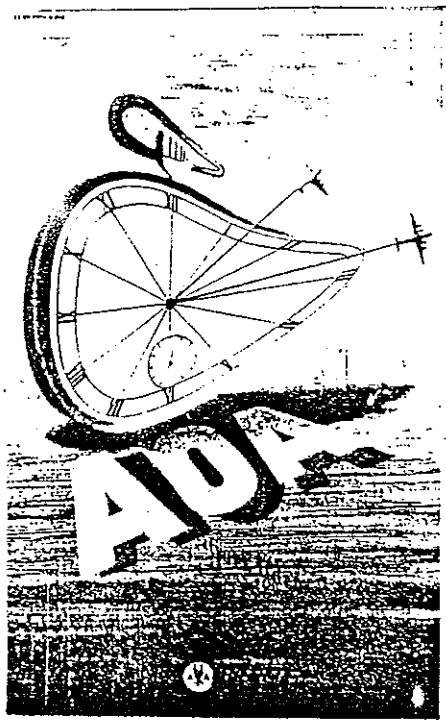

FIGURE 38

Lucat-Hini, poster for Overseas Airlines. In this poster great dynamic and strong movement are expressed by the gradation of tone from the dark foreground to the light horizon. (Courtesy Museum of Modern Art and Pan-American World Airways System.)

شكل"6" في الرسم سطح مستوي يمدين يولد لنا فضاء بثلاثة أبعاد " فضاء أيهامي" (م:16)